معقولية "الطعام لكل فم"

بقلم محمد محمود عبد الرازق

قلنا مرارا ان توفيق الحكيم لم يتجه بعد الى مسرح اللامعقول .. ان كان في نيته الاتجاه اليه وان مسرحية « يا طالع الشجرة » معقولة .. معقولة جدا وليست اكثر من ترديد ـ من حيث المضمون ـ لما سبق ان اعلنه من اراء وافكار عن الحاكم العادل فحاكم الحكيم يحكم حكما مطلقا بشرط الصلاح والنية الحسنة .. وهو حر فيما وراء ذلك وفيما امامه ، لكنه اذا انحاز الى القوة فهو مستبد ظالم اما اذا انحاز الى القانون فهو المستبد العادل .. وتلك هي مشكلة « السلطان الحائر » السيف .. ام القانون . فاذا ما حكم القانون رضي عنه الحكيم وصار نمطا من انماط المستبدين العادلين ، او الحكام الصالحين في نظره .

ومراعاة النظام العام .. اهم مبدأ قانوني يحرص المشرع على ابرازه ، ووضع الضمانات الكفيلة بصيانته والمحافظة عليه من عبث العابثين ، وليس في مراعاة النظام العام قيد على حرية الحاكم،فالحرية ليس معناها التجرد من القيود « وانما الانتقال الى قيود جديدة » .

هذا ان وجد النظام .. فان لم يوجد النظام العام للدولة ، او وجد في صورة رثة بالية فماذا يصنع الحكيم وحاكمه ؟؟ .. ذلك الحاكم العالم ذو النوايا الحسنة . هل يركن الى النظام القديم العفن الذي بليت اسماله فلم تعد تكفي لستر عورته ؟؟ .. هل يحترم الغثاثة والبلى واللاجدوى بحجة احترام النظام .. أي نظام . ام عليه ان يتمرد على النظام ، ليضع اللبنات الاولى في صرح نظام جديد قويم ؟ ..

هذا هو السؤال الذي اجابت عنه باسهاب مسرحية « يا طالع الشجرة » وليست الشجرة سوى النظام الجديد الذي القى على الحاكم مهمة خلقه ، الشجرة التي تطرح له كل صنوف الفاكهة في موسم واحد .. الشجرة التي توفر له خيرات الصيف والشتاء والخريف والربيع طوال العام . في كل يوم من الايام ..

ولا ندعي ان هذا هو التفسير النهائي للمسرحية ، فقد يشوبه عيب من عيوب المزاج الخاص او النظرة الضيقة اللذين كثيرا ما يكتنفان الموضوعية ، ولو عرضا . وكل ما حاولنا بيانه قدر الطاقة هو ان المسرحية من المسرحيات ذات المعنى التي لا تستعصي على المنطق . ويقول الدكتور رشاد رشدي « ثلاثة اشياء اعتقد انها تدل على سذاجة الناقد في نظري ان يحدد له معنى او بالاحرى ان يمنطقة » ولقد كتب الدكتور لويس عوض عدة تفسيرات لهذه المسرحية محاولا ربطها بفلسفة الحكيم وارائه عن بقاء الفكر وزوال المادة .

اما من ناحية الشكل ـ فليس التداخل المكاني الا حيلة مسرحية قديمة عرفها المسرح البدائي ذو الامكانيات المحدودة . اما التداخل الزماني فنجد بذوره عند توفيق نفسه في « اهل الكهف » وان كان القارىء لا يشعر امام هذا التداخل بالوحشة او الغرابة ، فرجوع ذلك لانطباع الاسطورة التي توارثها جيلا عن جيل في ذهنه ولماذا لا نقول انه اخذ عن بيراندو وعن غيره منهجهم في تداخل الزمان والمكان ، واهتزاز الخط الفاصل بين الحلم والحقيقة كتجديد لفنه ، له جذوره عنده وعند المسرح البدائي من قبله ولماذا لا نقول ان التخلخل المنطقي الذي احس به القارىء جاء نتيجة لهذا ، وللغموض الذي اكتنف المسرحية لكثرة رموزها ومع الاستمرار في القراءة تتضح الرموز وتلبس اثوابها الحقيقة التي ارادها لها المؤلف فتنقشع الوحشة ويصفو الجو رويدا رويدا ، ولقد كان لكل هذه الحيل الفنية مزية شدنا معها الى اخر المسرحية .

ليس المضمون اذن بالجديد على توفيق الحكيم ، وليس الشكل وقفا على الطوائف العبثية التي يتصدرها الان بيكت ويونسكو ... واذا كان المؤلف قد حشد كل هذه الحيل الفنية في مسرحية واحدة فذلك لان توفيق الحكيم يطور فنه باستمرار ولا يسد طريق المحاولة امامه ، وهنا يكمن سر عبقريته ، الوثابة دوما ، الا اننا في كل جديد له مهما بالغ في التجديد ، نلمس السير الدؤوب على نفس الدرب والجذور الضاربة في اعماق ماضيه لكل زهرة جديدة يقدمها لنا .. المسألة اذن مسألة تطور مستمر للاسلوب الذي يعد من اعقد المشاكل التي تواجه الفنان . قال توفيق الحكيم في زهرة العمر « ... انها دائما حالة القلق والتنقيب عن الاسلوب » .

اذا كان الامر كذلك فلماذا قامت كل هذه الضجة حول مسرحيات الحكيم الاخيرة ؟ . ومن المسئول عنها ؟؟؟ ..

نسارع فنقول ان عبء المسئولية يقع على الحكيم نفسه المغرم بالضجيج ليظهر بمظهر الصامت وسط العواصف والامواج المتلاطمة من حوله . وتبدأ المؤامرة بنشر خبر صغير مضمونه ان الحكيم يعد للنشر مسرحية جديدة يحيطها بسياج من السرية والكتمان ، ولا يرغب في الافصاح عن اتجاهها ولا حتى عن مجرد اسمها ، جاء هذا الخبر في نفس الجريدة التي نشرت المسرحية بعد حين ، ثم تابع الحكيم الضجة في مقدمته للمسرحية التي ضمنها اراءه عن التعبير اللامعقولي الذي عرفه شعبنا قبل ان تعرفه اوروبا بمئات بل الاف السنين سواء في النحت او التصوير او الادب ، والا فماذا نقول عن الصورة التي رسمها الاديب الشعبي باحساسه الفطري حينما « ضرب فارس من فرسان الاساطير الشعبية ضربة سيف شطر بها عدوه من منتصفه وظل العدو على فرسه ولم يفطن الى اصابته ، بل قال ساخرا للفارس الضارب «طاشت منك الضربة » فاجابه الفارس « اهتز يا ملعون » ... فلما اهتز بجسمه انشطر الجسم نصفين ووقع على الا رض ... » وتكتمل الضجة بقيام الصحافة الفجة الباحثة عن الخبر المثير باشعال جذوة نارها ، فجذبت النار كثيرا من النقاد والكتاب الطيبين الا ان الحيلة لم تنطل على الفئة الواعية التي كشفت المقدمة المضللة فقال لويس عوض « اذا اردت ان تعرف في اجمال ماذا فعل توفيق الحكيم في اخر كتاب له « يا طالع الشجرة ففي مقدمة الكتاب عبارة واحدة ربما ساعدتك على ذلك هي قوله : « احب دائما ان ارى وان استخرج ـ كما حدث عندي في (شهرزاد) من فننا الشعبي اساسا فكريا حتى عندما لا يريد الفن الشعبي ان يقول شيئا بل وعلى الاخص عندما لا يريد ان يقول شيئا ». اما بقية المقدمة فلا اعتقد ان لها قيمة معينة لا من حيث هي دراسة ولا من حيث هي تمهيد فهي قدتضلل اكثر مما تفيد ، وهي تعرض لاخطر الاتجاهات في خفة وربما في سذاجة ، لانها تجمع كل المدارس الجديدة كالسريالية والبقعية والتجريدية واللامعقول وغيرها في زكيبة واحدة

وتسميها الفن الحديث ، بل وتضع في نفس الزكيبة ابسن وبرنارد شو وبيراندلو وبرخت في حين ان لكل واحد من هؤلاء غاية خاصة ومنهجا خاصـــا . »

تنبه الحكيم الى ان للادب حراسا اشداء على المضللين رحمـــاء بالمبدعين ، فآثر التراجع ، وكما اندفع بذكاء لماح ، اراد ان يتراجع بذكاء لماح ايضا بعد ان تحقق ما اراد من صخب ، فاعلن في تعليقه علىمسرحية « الطعام لكل فم » انه ضد العبث والعبثيين ، لان اللامعقول عندهليس موقفا ضد العقل ، فكل ما يصدر عنه يصدر تحت سيطرة عقله وان « العبث » شيء « واللامعقول » شيء اخر ومسرح اللامعقول يتعلق عنده بالشكل فقط » وضع العالم المعقول في اطار اللامعقول ... هو ازالة الحائط الفاصل بين المعقول واللامعقول ليعيشا معا في اسرة واحـــدة متحابين ... يؤثر احدهما في الاخر ويزداد الوجود بهما ويثري » ونقول ان العبث واللامعقول واللامعنى كلمات تعبر عن اصطلاح واحد ، وان هذا الاصطلاح يشمل الشكل والمضمون معا ، ولا يجوز ان نفصل احدهما عـن الاخر ولا اصبح النتاج شيئا اخر وقد ثار البير كامو علـى مضمـــون « المعقولية العلمية في الفن » ورغم انه زعيم العبثيين وباعث اسطورة ـ سيزيف من مرقدها بين طيات العصور الخوالي ، لم يعتبر مسرحه مسرحا عبثيا . لان المسرح العبثي ليس مضمونا عبثيا فحسب ، انـــه الشكل والمضمون معا او كما يقول رشاد رشدي « لكي تكون الصورة واضحـــة ومطابقة للحقيقة يجب ان تكون طريقة عرضها ايضا مطابقة للحقيقة ... وهي الحقيقة الفنية التي لا يمكن ان تقيد بمعنى واحـــد ... حقيقـة التجربة نفسها كما عرفها الخيال لا حصاد التجربة بعد ان منطقها العقل « فاذا جاء توفيق الحكيم » اليوم وفصل الشكل عن المضمون ، واختار الشكل اللامعقولي ـ كما يدعى ـ دون المضمون فـــلا ينبغي ان نسمـــي مسرحه لا معقولا ، بل ونخدع انفسنا والجماهير معنا اذا حشرنا مسرحه في زمرة المسارح اللامعقولة التي اشعلتها ثورة عاتيةعلىالمعقوليةالعلمية في الفن شكلا وموضوعا .

ثم .... ماذا في « الطعام لكل لم » . ؟ ..

المسرحية تصور اسرة عادية تحيا حياة تافهة لا ثـراء فيها ، الزوج يعمل رئيسا لقسم المحفوظات باحدى الوزارات ، مجرد « مفتاح صفيح » لخزانة الوزارة ، يقضي اول نهاره بين ملفات لا يعرف مـــا بداخلهـا ، واخر نهاره وشطرا من ليله بين ثلة من الاصدقاء يلعبون النرد فيمقهى، اهم خبر يشغلهم في العالم المتطاحن باسرة ، هو نتيجة « العشرة طاولة » التي يلعبها صديقهم ابو عفان مع صديقهم ابو درش ، اما الزوجة فقـــد تبلدت وعلاها الصدأ حتى انها لم تفتح غطاء البيان منذ زواجهما اي منـذ قرابة ربع قرن . ويثور الزوج لنشع على الحائط سببه مسح الجـــارة القاطنة بالدور العلوي لشقتها ، وفي انتظار قدح القهوة يجلس فـــي الصالون متأملا النشع ، واذا بالنشع يتحول بقدرة قادر الى اسرة كاملة مكونة من ام واخت تعزف على البيان واخ عالم يحاول تحقيق حلم «الطعام لكل فم » باكتشاف علمي توصل اليه بالاشتراك مع زميل اوروبي ، وتزول دهشة المفاجأة الاولى لدى الزوجين ، ويقضيان الليالي الطويلة قابعـين امام النشع مستمتعين بالمناقشات القيمة التي تدور بين افـــراد الاسرة الجديدة المعلقة على الحائط .

فنحن هنا امام اسرتين ، حقيقة وخيال ... واقع ومثال . امـــا الواقع فعادي وتافه ، واما المثال فخصب معطاء . وقد نستطيع ان نقـول ان المؤلف قد استغنى عن « الحلم » «بالنشع على الحائط» لما يعرفهمن ان مسألة الاحلام التي يراها النائم في نومه وهو مستلق على اريكة مثلا ، وتظل القصة او المسرحية تدور حوادثها في الاحلام حتى اذا مـــا قاربت النهاية استيقظ الحالم من نومه او غفوته بعد ان نال درسا قاسيا ، او استفاد بتجربة واعية ، لما يعرفه المؤلف من ان هذه الحيلة ونظائرها قـد اضحت من العقم بحيث لم تعد تقنع القارىء المعاصر او تشبع نهمه الـى سبر اغوار الواقع ، حتى اهلنا عليها التراب وحفظناها في متحف التاريخ الادبي ، لما كان المؤلف على دراية ووعي بكل هذا ، استعان « بالنشع علـى الحائط » كوسيلة جديدة ، وحيلة طريفة ، اي انه لم يقم بأكثر مـــن وضع « تلفزيون » داخل المسرح ، تلفزيون يعرض مشاكل اسرة مفكـــرة داخل بيت عادي ، او راديو من داخل راديو ، ولا نشعر ابدا انهـــا عفاريت دخلت من الحائط هذا العالم غير المرئي الذي يحير توفيق الحكيم، لا نصدق ذلك لان للعفاريت حرية الانتقال داخل البيت والوقوف علـــى رؤوس اصحابه ، اما الاسرة التي اسفر عنها النشع فكانت محددة الحركة والمكان بالحيز الذي تشغله بقعة النشع ذاتها ، اي ان الفاصل بـــين الحقيقة والخيال ما زال قائما لم يذب ولم يهتز . فلكل مكانه الذييدل عليه ، الواقع المعاش يتحرك على خشبة المسرح والخيال معلق على الحائط، تماما كما حدث بالنسبة لتجربة تداخل الزمان فـــي مسرحية « اهـــل الكهف » فالزمان لم يتداخل في هذه المسرحية بالمعنى المفهوم الان بل كان لكل زمان حدوده ـ وعلاماته ، فأهل الكهف يمثلون الزمان القديم حتى بعد ان دخلوا وسط الناس لم يذوبوا فيهم .. لم تطمس سيامهم التي على وجوههم .

ولكنا نظلم توفيق الحكيم ، اذا قلنا انه اراد تصوير عالمين منفصلين لا يلتقيان ، واقع ومثال . والا لاختار الطريق المطروق بتصوير شخصيتين او اكثر من لحم ودم . شخصية عادية واخرى مثالية مديرا الصراع بينهما ليؤثر احدهما في الاخر ، او ينفر احدهما من الاخر كما حدث لابسنفي مسرحيته الشعرية « براند » (١٨٦٥) فبراند رجل دين مثالـــي يعيش وسط قوم يمثلون البشرية بكل ما فيها من ضعف وانانية وانغماس فـــي الملذات ، براند بتطرفه المثالي يتلقى الضربات بعزيمة وصبر وافراد كنيسته بواقعهم المر يلاحقونه بوابل من الحجارة وهو في طريقه الى كنيسته الجديدة باعلى الجبل حتى اذا ما وصل الى القمة اصابته الاحجـــار المنهمرة واودت بحياته .

توفيق الحكيم لم يقصد تصوير عالمين منفصلين يتصارعان ولا يلتقيان، واقع ... ومثال . وانما صور عالما واحدا بواقعه ... وغيبياته « وبين الحقيقة والخيال قطرة ... وربما لا يوجد شيء بينهما على الاطلاق ... والانتقال بينهما عادي جدا ... وربما كانا شيئا واحدا ... » كما تقـول الزوجة في المسرحية . والتبرير الصحيح لما نراه امامنا على الحائط نجده في بسائط علم النفس ، بقعة من البقع .. بقعة حبر مثلا ، سقطت عفوا ، او القيت باهمال على قطعة من الورق ، لا بد ان كلا منا سيراها منزاوية معينة ، وسيجد فيها اشكالا غريبة تختلف عما يراه الاخر حسب ما يـدور في نفسه وفكره ، كنا على شاطىء البحر ، وكانت السماء مثقلة بالغيوم ، ووسط سحبها الرمادية القاتمة ، سحابة بيضاء ناصع بياضها ، استرعت انتباه الجالسين وظللنا نتأملها فترة ، ثم قال احدنا انها فارس منقـــذ على جواد اشهب ، يقتل ثعبانا كبيرا ، تماما كصورة القديس « ماري » جرجس التي نراها على الجدران ، اما الثاني فرآها قردة تضحك وتلعب فوق اكتاف مهرج بائس في سيرك متواضع ، ورآها الثالث انسانـــا حجريا يطارد صيدا بين الاحراش الكثيفة المظلمة . وكذلك كون « النشع على الحائط » اسرة مثقفة تتناول الموضوعات الهامة بالمناقشات المثمرة .

ولكن ... كيف يحدث ان يجتمع اثنان في رؤيا واحدة بكـــل تفاصيلها ودقائقها ؟؟؟ ومن صاحب هذه الافكار ؟ ومن الذي ادار دفـــة المناقشات الراقية على لسان « اسرة الحائط » ؟؟ .. وعهدنا بسميرة وحمدي التفاهة والسطحية ... او كما قال حمدي لزوجته عند اختفاء الاسرة الجديدة بتساقط « البياض » نفيا لفكرة خلقهما لهذه الاســـرة « رؤوسنا ؟ .. وهل رؤوسنا كان فيها شيء ؟ ... في ذلك الوقت ؟ انهم كانوا ارقى منا ... اتنكرين ؟... انت التي قلت ذلك يومئذ ... فيما اذكر ... » والحقيقة ان الرؤوس لم تكن خالية ، وانها فعلا مـــن صنع رأسيهما ، اما سبب هذه الصناعة الجيدة والمناقشات الفكريـــة التي تعلو على مستواهما كما يعتقدان ، السبب اسرة ثالثة لم يشأ لهـا الحكيم ان تظهر على خشبة المسرح وكان لها فضل تحريك الكوامـــن ، وادارة الاحداث ، اسرة اخت الزوجة وزوجها المحاسب الشاب ، كـــان حمدي في نظر هذه الاسرة الثالثة مجرد مفتاح صفيح لصندوق الوزارة لا يعرف ما بداخل الصندوق ، اما المحاسب فرغم انه في مقتبل العمر، ولم يصل الى مركز رئاسي بعد ، الا انه على الاقل يعرف ما في ملفاته ،

يبحث موضوعاتها ويناقشها مع نفسه واقرانه ورؤسائه . وكانت سميرة تنقل هذه الاراء لزوجها وتحثه على العلو بنفسه والسمو بافكاره ، على ان يترك المقهى وينظر الى الحياة نظرة جادة . وعلى اثر مناقشة من هذه المناقشات بين الزوجين واخرى بين الزوج والجارة التي تقطن الدور العلوي انتصر فيها الزوج وارهب الجارة واثار اعجاب زوجته ، على اثر هاتين المناقشتين جلس يتأمل « النشع على الحائط » فكان ما رأى وكان ان اشرك زوجته في الرؤيا فصدقتها .

من هذا نرى ان المحرك الاول لهذه الرؤيا هو الغيرة .. الغيرة من الاسرة الثالثة التي كانت تعريهما وتكشف عن سوآتهما ، وما في حياتهما من تفاهة وسخف وليس بغريب على امرأة وثابة كانت تعشق الفن وتجيد العزف على البيان قبل زواجها ان تستجيب لهذا الدافع حتى تصل الى مستوى اختها او الى خير منه ، وكذلك الزوج ... فان كانت الوظيفة والظروف المحيطة بها قد طوقاه بالتفاهه والسطحية ، فانه رغم هذا يتمتع بشخصية قوية بناءة تؤثر في محدثيها ، وتدل على « خلفية » ليست هينة او على الاقل ليست تافهة كما هو في الظاهر .

التفاهة والسطحية هما الصدأ الذي يعلو معدنهما النفيس مع تراكم الايام الرتيبة وانعدام الهدف ، فاذا ما استطاعا ان يجلوا هذا الصدأ ادهشنا المعدن النفيس ببريقه وقيمته . ثم ن المسألة التي خضنا غمارها لم تكن بعيدة عنهما ... انها مشكلة كل بيت ... وكل يوم .. انها لقمة العيش ، المشكلة التي تحير العالم وتستعصي على حل معقول . ان بامكانهما ان يثيرا اهتمامات العالم بأسره اذا توصلا الى توصيل الطعام لكل بيت ... لكل فم ، اذا اصبح كيلو اللحم بنصف مليم او بالمجان وقس على ذلك جميع المأكولات ، فالخبز هو المشكلة التي تهم الجميع ، الخبز هو المشكلة التي تهم الجالسين على المقاهي يتسامرون ، والقائمين امام الالة يكتوون بنارها ، والراقدين في خيام اللاجئين يئنون ويتلوون من عضة الجوع ، الجوع هو المشكلة التي تحير الذين يكنزون الذهب والفضة ، والذين يربطون الحجارة على بطونهم .

عندما توصلا الى هذه الفكرة لم تعد تهمها اسرة الحائط التي اختفت . وهل هي حقيقة ام خيال ؟... لم يحيرهما « الشبح » كما حير « هاملت » فلا يوجد فاصل واضح بين الحقيقة والخيال .. ربما كانا هما ايضا مجرد خيال ؟؟؟ ... من يدري ؟..

كل ذلك لا يهم .. المهم هو العمل .. العمل المثمر البناء ...

ـ اذا كانت نادية وامها وطارق مجرد خيال ... فلماذا لا نكون نحن ايضا كذلك ؟.

ـ ماذا تقولين ؟ ....

ـ لماذا لا نكون نحن ايضا مثلهم ؟.

ـ فليكن ... المهم هي الحياة ... الحياة المثمرة ... الحياة في كل صورها ...

وتقديس العمل ... نجده في اعمال كثيرة لتوفيق الحكيم، اهمها رائعته « رحلة الى الغد » فحتى الخلود بلا عمل امر تافه ... كسل وخمول خير منه الموت « يجب ان نعمل ... لا يمكن ان نقضي هذا الخلود دون عمل شيء ... » والحرية ذاتها بالدماء التي اريقت في سبيلها ، بالامال العراض المعلقة على نوالها ، بتاريخها الاسبارتاوكسي الطويل تكمن في الاحتياج ثم العمل « الحرية ان نحتاج ونعمل ، ونحدث شيئا ، وننتج جديدا ... هي ان نصنع حاضرا ومستقبلا ... هي ان نؤثر في الغير وفي الحياة التي حولنا ... « العقل يختل اذا لم يعمل ، اذا وقف فقد انتهينا « .... انتهى الانسان فينا ... ودخلنا في عداد الاشياء ، لا في عداد الاشخاص ... » وتحمل هذه الفقرة تأكيدا اعمق لتفاهة الحياة دون العمل الفكري ... دون الفكر ... صلب الحياة وعصبها .

وفي « رحلة الى الغد » نجد اكثر من ذلك ، نجد عمدا كثيرة قامت عليها « الطعام لكل فم » ومنها تجربته الاولى مع تعليق الافكار على « الحائط » . بل ان الافكار هنا تقف في الفضاء على شكل صورة ، لا يعترضها حائط ، تقف وتسير وتتكلم وتعمل ما على المرء الا ان يتذكر حادثة حتى يراها نصب عينيه ، هناك في ركن من الفضاء ، واضحة جلية ان وعت ذاكرته كل دقائقها ، مطموسة الملامح مبتورة ان لم تقو الذاكرة على حفظ التفاصيل ، صور المخيلة تنتقل الى الخارج اذن ، كما لو كانت ترسل بالراديو من وراء البحار ، اذا تذكر الشخص زوجته فستمثل امامه وسيراها غيره ايضا في الفضاء القريب ، جميلة ، انيقة، وادعة ، تجلس على مقعدها المعتاد بجوار الراديو وفي يدها ابرة « التريكو » تخاطب زوجها : « ما احلى هذه اللحظات ... وانت الى جانبي ... يا زوجي العزيز » فاذا ما انتقل الشخص الى موضوع اخر اختفت الصورة ، وحل محلها خاطر جديد .

لم تثر هذه الطريقة حولها مناوشات ادبية ، او مناقشات نقدية ، لان « الفصل الثالث » الذي نحن بصدده من الرحلة الى الغد ، يصور الحياة على كوكب اخر ، كوكب مشحون بالكهرباء ، وله في هذا المجال ان يتصور ما شاءت له الصورة او ما شاء لها ، دون ضابط او زاجر الا الموضوع نفسه كما تخيله المؤلف واحس به . اما « الطعام لكل فم » فانها تحدث هنا ... على ارضنا ... وهنا يرفع القلم سنانه للمناقشة والتحليل .

ولكن ... لماذا تساقط البياض على الارض ، رمزا لاختفاء اشخاص الحائط ، لزوال الحياة ؟ ثم لماذا اصر الحكيم على احضار ميكروسكوب ووضع القشور المهشمة تحت عدساته المكبرة ، ليرى انها مجرد قشور ، مجرد ذرات من تراب متماسكة الان تذروها الرياح بعد آن ؟

ماذا يعني هذا الرمز ؟؟ ..

هل يعني ان الحياة مجرد قشور هشة هزيلة ، مجرد ذرات تراب واهنة هاوية . يؤيد الاديب عدلي خميس هذا الرأي ـ في مناقشة دارت بيننا ـ ولكنا نرى ان مادة الحياة فقط هي القشور الهشة . الجسم هو ذرات التراب المتطاير ، اما الفكرة فباقية خالدة . تنتقل من رأس الى رأس ، ومن بلد الى بلد ، تعبر البحار وتمتطي صهوة الاثير ، ولا تعرف الفناء . بل تنمو وتتطور وتثرى الحياة . وعلى هذا لم تمت الفكرة بتساقط القشور ، بل ظلت حية في رأس الزوجين وستنتقل حتما من رأسيهما الى رؤوس اخرى كثيرة ، وبيوت اخرى كبيرة ، اكبر واشمل من عش اثنين وابقى واخلد من رأس زوجين .

صدر حديثا :

سلطنة الظلام

في مسقط وعمان

بقلم

عوني مصطفى

الثمن ١٥٠ ق. ل. دار الاداب

اما لماذا أطال المؤلف البحث عن طريق لاعادة الصورة الى الحائط ... بعد نسافط القشور ، لماذا اضنى الزوجين في محاولات شتى باءت كلها بالفشل ، حتى افلت الفصل الثالث والاخير من يده ، وطال بمقدار النصف اكثر مما يجب . فهذا ما لا نجد له تبريرا .

ان كان لتأكيد ثبوت الصورة في المخيلة ، ورسوخ الفكرة في العقول ، دون الجدار او القشور ، فالاجدى ـ من الناحية الفنية ـ الا نعرض كل هذه المحاولات على خشبة المسرح ... يكفي ان نحاط علما بحدوثها دون مشاهدتها ، درأ للملل ، وحدا للاطالة في موضوع لا يطور الفكرة او يخدمها . يكفي ان نشعر انها تمت فعلا كما حدث بالنسبة لاغراق الشقة العليا بالمياه عدة مرات ...

اما الفكرة الاساسية التي قامت عليها المسرحية فهي البحث عن طريق لالغاء الجوع ونجد هذه الفكرة ايضا في « رحلة الى الغد » بل ونفاجأ بنفس التعبيرات ، ونفس العقبات التي تعترضنا عند التنفيذ ، ففي الفصل الرابع والاخير من « رحلة الى الغد » نرى صورة للارض بعد قرنين من الزمان ...صورة للعالم المتعطش للامن والسلام والخير..

وفي هذا العالم المستقبلي يستخرج الناس الطعام بكميات غير محدودة بالطرق الكيمائية :

ـ الغاء الجوع !!! ...

ـ كادت تلك الاكتشافات في اول الامر تعرض العالم لحرب جديدة ... فالدولة التي اكتشفت اولا ارادت الاحتكار ... ولكن سر الاكتشاف لم يلبث ان تسرب وعرفته كل الدول ... واستطاعت كل امم الارض ان تنتج الطعام بغير تكاليف ... وبهذا عم السلام ...

ـ كل شخص يجد القهوة واللبن في الانابيب ...

ـ نعم ... وما وجه الغرابة في ذلك .

هذه محاورة من المحاورات التي دارت بين فتاة من فتيات المستقبل ، وبين رجل من رجالات الحاضر ، عاد الى الارض بعد قرنين من الزمان ، أو سيعود اليها ـ بتعبير اصح ـ .

ويلاحظ هنا بعض أوجه الشبه « بأهل الكهف » . اهل الكهف يخرجون من اغوار الماضي الى حاضر زمان ما ، ورجل الغد يصعد من الحاضر الى امام القرون ... رحلات زمنية متكاملة ، يتقهقر فيها الماضي ويعود الى كهفه ... الى سجلات التاريخ ويسعد بها الحاضر ، ويصعد الى المستقبل متمنيا ما رآه حاضرا ... متمنيا ان يرى المواد الغذائية الضرورية تستخرج من البحار والمحيطات والرمال والهواء ، لا تدفع من اجلها نقود ... بل وتلغى النقود بالضرورة .

هذه الفكرة التي احتوتها الرحلة الى الغد ، ضمن ما احتوته من افكار ، وعرضته من عوالم ، هي الفكرة الرئيسية التي قامت عليها « الطعام لكل فم » والخوف من احتكار الدولة للاكتشاف يؤرق المؤلف هنا ايضا الى ان يجد حلا مقبولا باقامة مشروعه على فرض .. هو في حد ذاته خيال ... حلم وامل ، على فرض ان العالم وحده سياسة واحدة وكل نكامل لا يتجزأ ، على فرض الغاء الحدود السياسية والحواجز الجمركية ، على فرض عالم جديد بلا اطماع ، وبلا حروب ، وبلا عقد نفسية تتحكم في ساسته وسدنته .

ولا يخفي على المؤلف ما للجوع من اهمية تاريخية عملية بالنسبة للطغاة ، فالجوع هو سلاح السيطرة والاستعبا د، هو المدفع الذي يقوض به المستعمر دائما حضارات قديمة وقيما قويمة . ولن يتخلى المستبدون عن سلاحهم « ولهذا بالذات يجب ايقاظ الشعوب ... لتتجه بكل خيالها وشوقها الى ذلك الهدف البعيد : الرحلة الى الطعام العام .. »

والمؤلف لا يقدم لنا هذا المشروع الخيالي المبني على اسس علمية ، انه يدعو اليه فقط ، يدعو الى الايمان ولو في الخيال بامكان الغاء الجوع ، فالمسرحية دعوة صادقة للكتاب والمؤلفين لبث الفكرة في الشعور الاجماعي . فلقد كانت الرحلة الى الكواكب البعيدة ... بعيدة . ولكن الرحلة تحققت في الخيال اولا ، بدأت بالحلم في الطيران عند اليونان والعرب ، في ان يكون للانسان جناحا نسر يحلق بهما في الفضاء ، كما اصبح له قدرة حوت يشق بها عباب البحار ومتاهاتها . بدأت بالحلم في الصواريخ وسفن الفضاء واطباقه الطائرة ، ووجدت البشرية من يحلم لها ، فكانت القصص الرائعة التي كتبها ويلز وجول فيرن وزيولكوفسكي عن الصواريخ وسفن الفضاء ، فاذا ما تم غمر الدنيا بالاحلام كان من السهل الانتقال الى الواقع ... اذا ما حلم الناس بالغاء الجوع بالقوة التي حلموا بها للوصول الى القمر ، بنفس القوة والاصرار والعزم ، فلا بد ان يستجيب العلم ، ويصبح الحلم حقيقة واقعةملموسة في يوم ما ... مهما كان بعيدا ، فلن يبعد بعد الجوزاء ، ومهما كان شاقا فلن يشق على النفوس الامله الطامحة .

سؤال اخر ... لا يبدأ بكيف ، فقد عرفنا كيفية الوصول ، بل بالحرف المحير .... لماذا ؟؟؟ ....

لماذا فكر الناس في الصواريخ ولم يحلموا بالغاء الجوع ؟؟.

« اترى الانسانية كالطفل الذي يفكر في لعبته قبل لقمته ؟ ... »

لا ... بل لان الذين يفكرون للانسانية ـ هكذا يقول الحكيم ـ ويحلمون لها ، لم يجوعوا ... ولم يشعروا بجوع الاخرين .

واذا كان للحكيم فضل هذه الدعوة ... فاننا الان ، في انتظار كاتب اخر ... رجل كجول فيرن او ويلز ، ليمهد لنا الطريق ، يحلم لنا احلاما سعيدة ، يحملنا معه في سبحات الغفوات الى عوالم بعيدة ... لنصنع الجنة بأيدينا لنخلق جنة حقيقية ، دون انتظار لها في عالم اخر ، نصنعها هنا ... على ارضنا بسواعدنا وعزمنا ، نحيل الانهار الى عسل وخمر ، والبنات اللاتي يلطخهن طين الحقول وعلوم المصانع الى حور عين ، امهاتنا وبناتنا هن الحور العين بحسب المآل والآمال ...

موضوع اخر .. فكرة زجت بنفسها في المسرحية ، وعرضها الحكيم في حواره على الحائط ، مضمونها انه يجب على الفنان او العالم الا يشغل ذهنه الا بفنه وعلمه ... عليه ان يخلف وراءه كل مشاكل الحياة ، لان القيم تتغير .. والاخلاق تتطور ... فاذا ما قتلت ام الفنان اباه لتتزوج بعشيقها ، فليس له ان يثور لدم ابيه ، او يفكر في الانتقام ويترك العلم والفن الذي بهما يحيا الانسان ... تسعد البشرية .

ان هاملت واليكترا واورست ، كانوا يعيشون في زمن مضى ... في عالم فارغ بعقلية طفله ... وكان عليهم ان يشغلوا هذا الفراغ ، في حدود اهتماماتهم الساذجة شغلوه بالتفكير في الانتقام ، بالمؤامرات والمناورات ... والا لما وجدوا ما يعملونه ، ولماتوا بطالة وملالا ...

اما اليوم ... فالعالم اكثر تعقيدا ... وادعى للعمل الجاد المثمر من هذه الافكار السقيمة ...

فكرة جديدة ... لم نعها بعد ... ونأمل ان نجد تفسيرا لها في عمل اخر من اعمال الحكيم الحكيمة ... كعادته . »

حلوان　　　　محمد محمود عبد الرازق

فندق نيو پالاس
ادارة : فتحي نوفل

وسط راقي
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف

جناح خاص
للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان

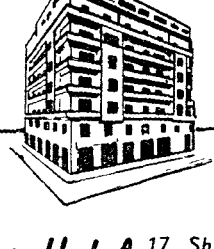

١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوبريه سابقا) القاهرة
خلف سينما الكوكب بعمارة الدين

ت : ٤٥٩٣٦
س ت : ٧٩٧٩١

New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 - Cairo